الآداب السلطانية
في كتاب سراج الملوك للطرطوشي

م.د. هند عبد الحق عبد الستار العبيدي
كلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية

المستخلص

تعد الآداب السلطانية، نوعاً مميزا من انواع الفكر السياسي، ولابد ان نميز بين الآداب السلطانية، والاحكام السلطانية، فالأولى تحاول مزج السياسة بالجانب الاخلاقي، اما الثانية فتركز على الجانب الشرعي. وابي بكر الطرطوشي يعد من رواد الفكر الاسلامي الاوائل ومن الذين حاولوا التأليف في علم السياسة وفن الحكم. وهو يشبه غيره من المفكرين الاسلاميين، اذ يرى ان الاخلاق والسياسة، هما شيء واحد متفق.

الكلمات المفتاحية: الآداب السلطانية ، السلطة ، السلطان ، الطرطوشي ، نصائح الملوك.

Abstract:

Royal etiquette is a special kind of political thought, and we must distinguish between royal etiquette and kingly rulings. The first wants to mix politics with ethics, while the second focuses on the legal aspect. Abu Bakr al-Tartushi is considered one of the pioneers of Islamic thought and one of those who tried to write in Politics and statecraft. He is similar to other Islamic thinkers, as he says that ethics and politics are the same thing.

Keywords: royal etiquette، authority، sultan, Tartushi, advice of king.

المقدمة

تعد الآداب السلطانية، من ابرز انواع الفكر السياسي الذي رُشح عن مخرجات الحضارة العربية الاسلامية سواء في مشرقها العربي او في غربها الاسلامي. اساسها يقوم على مبدأ نصيحة اولى الامر في تيسير شؤون سلطتهم ووعظ الملوك والحكام وما ينبغي ان يتخذوا من سياسة رشيدة جامعة لمصالح الرعية التي لا تستقيم الحياة بدونها ،ان ثوابت الخطاب السياسي السلطاني يندرج عادة في دراسة الافكار السياسية ومضمون التفكير السياسي الخاصة بأدارة الجماعة المسلمة .والآداب السلطانية معادل موضوعي للأستبداد السياسي الذي كان يهيمن على القصور وبلاط الخلفاء والامراء ، الطرطوشي رائد من رواد الفكر الاسلامي الاوائل الذين كتبوا في فن الحكم وعلم السياسة ومع أن كتابات المفكرين الاسلاميين عن هذا النوع من الفكر، كانت كثيرة وجاءت بوقت مبكر نسبياً منذ العصر العباسي، الا انها لم تنل حظها من الدراسة بقدر كافٍ من الباحثين.

اهمية البحث : تكمن في ان كتاب (سراج الملوك) لأبي بكر الطرطوشي، واحداً من المصنفات المهمة التي عنى صاحبها بالآداب السلطانية . ويعد المدخل التأريخي الرئيسي لها هو واقعة (تحول الخلافة الى ملك) ، وهذا البحث يحاول ان يلقي الضوء على طبيعة الآداب السلطانية التي اكتنز بها الكتاب .

اشكالية البحث : يحاول البحث الاجابة على عدة تساؤلات منها هل هناك ثمة فرق بين الآداب السلطانية، والاحكام السلطانية؟ هل من مفكر اسلامي سبق الطرطوشي وعالج موضوع (الآداب السلطانية) ؟ هل وضع الطرطوشي في كتابه، سياسات يجب ان يعتمدها الملك والحاكم ؟ هل يشبه الطرطوشي غيره من المفكرين الاسلاميين في طروحاته ؟

فرضية البحث : يحاول البحث اثبات ان هناك فرق بين الآداب السلطانية، والاحكام السلطانية، فالاولى تحاول مزج السياسة بالجانب الاخلاقي، اما الثانية فتركز على الجانب الشرعي ، فالاخلاق لا تختلف عن السياسة عند الطرطوشي لأنهما شيء واحد متفق، وهو في هذا المفهوم يشبه غيره من المفكرين الاسلاميين، كما يشبه طروحات فلاسفة اليونان القدامى ومفكريهم.

منهجية البحث : اعتمدنا على المنهج التاريخي في تتبع الاحداث ومساراتها، كما تم الاعتماد على المنهج الوصفي وتحليلي في مناقشة وتحليل افكار الطرطوشي للوصول الى النتائج ورسم ملامح الصورة الواضحة المعالم عن الآداب السلطانية عنده .

المبحث الأول الطرطوشي : السيرة والنشأة

ا. اسمه ونسبه ولقبه وكنيته واسرته:

هو محمد بن الوَليد بن محمد بن خَلف بن سَلمان بن ايوب ألفهري الطرطَوشي [١] يكنى بأبي بكر، ويُعرف بأبن أبي رندقه[٢].اما ولادته وأسرته ولد ابو بكر الطرطوشي في مدينة طرطوشة الاندلسية سنة (٤٥٠هـ) او (٤٥١هـ) على اختلاف في الآراء [٣]، وكانت مدينة طرطوشة، مدينة تجارية عظيمة، بها اسواق

---

[١] نسبه الى مدينة طرطوشة، وهي من مدن الاندلس تقع على سفح جبل الى الشرق من بلنسية وقرطبة. الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الاقطار، تح: احسان عباس،بيروت، ١٩٧٥، صـ٣٩١.

[٢] لفظة اجنبية معناها : رد تعال ، ابن خلكان، أحمد بن محمد، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تح : احسان عباس ، بيروت ، د.ت ،جـ ٤ ، صـ ٢٦٥ .

[٣] للتفاصيل عن سيرته : أبن بَشكوال، خَلف بن عبد المَلك ،ألصِله في تاريخ ائمة الاندلس ،تح : ابراهيم الابياري، القاهرة ، الكتاب المصري ، ١٩٨٩،جـ٣،صـ٨٣٨- ٨٣٩ ؛ السمعاني ، عبد الكريم بن محمد ، كتاب الانساب ، تح: محمد عوامة ، بيروت، ١٩٨٠،جـ ٨،صـ٢٣٥ ؛الضبي، احمد بن يحيى ،بغيةَ المَلتمس في تاريخ رجال الأندلس، تح : صلاح الدين الهواري ،بيروت ، ٢٠٠٥ ،جـ١، صـ١٢٧- ١٣١

وعقارات وضياع، وفيها نشأ ابو بكر الطرطوشي ونعم بجمالها الطبيعي[٤]. ولم تذكر المصادر التي ترجمت لشخصيته، شيئاً عن اسرته، فلا نعلم على وجه التحديد، هل كان أهله من ذوي الجاه والسلطان؟ ام كانوا تجاراً؟ ام من اهل العلم؟ ام كانوا رجال حرب لا سيما ان الاندلس، كانت تشتعل في تلك المرحلة من التأريخ بالفتن وتنتهبها الانقسامات؟ الا ان الطرطوشي في كتابه هذا يروى لنا قصة عن فرد واحد من افراد اسرته، كان خالاً لوالدته يدعى ابن فرحون، واستنتجنا من هذه القصة ان اسرة والدته كانت ذات جاه في سرقسطة. اما عن والده الوليد فينتهي نسبه الى قريش اذن فهو عربي الاصل[٥]. وتذكر المصادر ان الطرطوشي تزوج من امرأة صالحة غنية[٦]، وانجب منها اولاداً لا نعرف عددهم لكن الابن الاكبر كان اسمه بكر وبه يكنى[٧].

وفاته

اتفقت المصادر على ان وفاة الطرطوشي، كانت في الثلث الأخير من ليلة السبت لاربع بقين من جمادي الاولى سنة (٥٢٠هـ)، وصلى عليه ولده محمد، ودفن في مقبرة وعلة [٨] ، وقد زار قبره كثير من المؤرخين والرحالة الذين زاروا الاسكندرية، ومنهم كان المقري اذ قال : ((ودفن قبلي الباب الاخضر بالاسكندرية وزرت قبره مراراً)) [٩] .

---

[٤] . ألشيال ، جمال ألدين، اعلام الاسكندرية في العصر الإسلامي ،القاهرة ، مكتبة ألثقافة الدينية، ط١، (٢٠٠١م) ، ص ٣.

[٥] . ألشيال ، المرجع نفسه ، ص ٥٥ .

[٦] . ألضبي، رجال الاندلس ، صـ ١٢٩.

[٧] . أبن بَشكوال، ائمة الاندلس ، جـ٣، صـ ٣٣٨؛ ألضبي، رجال الاندلس ، صـ ١٢٨.

[٨] أبن بَشكوال، ائمة الاندلس، جـ٣، صـ ٣٣٩

[٩] . أحمد بن محمد ،نفحُ الطِيب من غُصن الأندلُس الرَطيب، تح : أحسان عباس ، بيروت ، صادر ،(د. ت) جـ٢،صـ ٨٨.

II. نشأته العلمية

١. رحلاته في طلب العلم:

بدأ الطرطوشي رحلاته في طلب العلم من مسجد طرطوشة الكبير في وطنه الاندلس، وتلقى فيه علومه الاولى، وقرأ الفرائض والحساب لكن المصادر لم تذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم هذين العلمين[١٠]. ولما بلغ الخامسة والعشرين وبعد ان تفقه في مدينة سرقسطة بالاندلس رحل الطرطوشي الى الشرق، وذلك في سنة (٤٧٦هـ)، وكانت وجهته مكة المشرفة، وقد استقر بها بعد اداء فريضة الحج يتلقى فيها بعض الدروس، ولكنه لم يمكث بها طويلاً، واستأنف رحلته الى بغداد التي كانت في ذلك الوقت، مركزاً من اكبر مراكز العلم في العالم الاسلامي، وكانت محط رحال العلماء والفقهاء، وكان يتولى امور الشرق في ذلك الوقت الوزير نظام الملك السلجوقي الذي كان محباً للعلم وللعلماء، حيث قربهم اليه واغدق عليهم بالعطايا، حيث اشاد الطَرطُوشي بذلك اذ شهد آثار هذه السياسة العلمية اثناء مقامه في بغداد، بذلك في كتابه هذا[١١]، لا سيما اهتمام نظام الملك بالمدارس، ومنها مدرسة العادلية، والمدرسة النظامية ببغداد، التي بينت قبل وصول الطرطوشي الى بغداد بسنوات قليلة، وقد شهد اوج عظمتها وتتلمذ بها، وذكر قصة بنائها في هذا الكتاب[١٢].

ومع ان الطَرطَوشي، كان على مذهب مالك، الا انه تتلمذ على يد بعض فقهاء الشافعية وبعض الحنابلة في هذه المدرسة التي كانت تضم نخبة مميزة من العلماء الاجلاء ضمن كادرها التدريسي[١٣] .

---

(١٠) . أبن خُلكان، انباء الزمان، جـ٤، صـ ٢٦٢ .

(١١) . الطَرطَوشي،سِراج الملوك ،صـ ٥١٦ .

(١٢) . نفسه، صـ ٥١٦.

(١٣) . نفسه، صـ ١٦ ؛ ألشيال، الاعلام ، صـ ٥٨.

اتجه الطَرطَوشي اثناء مكوثه في بغداد نحو التصوف، فدرسه ونبغ فيه، حتى عُد من المتصوفة الزاهدين، ذلك ان الحياة التي كان يعيشها في بغداد، وما فيها من زهد وتقشف العلماء الذين اخذ عنهم، قد اثرت فيه تأثيرا كبيرا، فقد كانوا برغم تضلعهم في الفقه وعموم العلوم الدينية، من الصوفية الذين يكرهون الحياة ذات النعيم الزائل، فضلاً عن الشعر الذي سمعه عن الشيوخ العراقيين الذين اخذ عنهم ، وما رواه عنهم فيما بعد في كتابه سراج الملوك(١٤).

ثم زار مدينة البصرة، أقام فيها مدة من الزمن تتلمذ فيها على يد شيوخها، ومنها ذهب الى الشام، بعد ان بلغ مرتبة من النضج الفكري تؤهله للتدريس لينتفع الناس بعلمه، وبعد ان سلك طريق الزهد والتصوف، والسعي للامر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجمعت المصادر على انه عاش في الشام يمارس مهنة التعليم، فأقبل الناس عليه وأفادوا من علمه،وقد نال شهرة واسعة ، حتى سعى اليه اصحاب السلطان، والحكم ، لكنه كان شديدا معهم في القول و في تقديم النصيحة اليهم (١٥).

وتذكر المصادر انه زار القدس، واشار الضبي من دوافع الطرطَوشي لزيارة بيت المقدس،هي الرغبه في مقابلة أبي حامد الغزالي، الذي لم يحظ بمقابلته في بغداد، لأن الطرطوشي ترك بغداد حوالي سنة (٤٨٠هـ) قبل ان يصل اليها الغزالي، وقبل ان يعين استاذا بالنظامية في بغداد(١٦).

واقام الطرطوشي مدة من الزمن في بيت المقدس، ثم تركه وارتحل الى جبل لبنان، وربما يكون قد زار دمشق، ومعظم المدن الشامية الاخرى مثل حلب

---

(١٤) . ألشيال، الاعلام ، ص ٦٣ .

(١٥) . أبن فرحون، ابراهيم بن علي ، الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب، تح: محمد الاحمدي، القاهرة ، مكتبة التراث، ط٢، ٢٠٠٥، جـ٢، صـ ١٩٤.

(١٦) رجال الأندلس ، جـ١، صـ ١٢٨.

وانطاكية التي زارها في أواخر عام ٤٩٠هـ، وفي هذه السنة كانت الحملة الصليبية الاولى التي وفدت على الشرق واستطاعت الاستيلاء على مدن الشام الشمالية الواحدة بعد الاخرى، واغلب الظن ان هذا الحادث الخطير واستيلاء الصليبيين على سواحل الشام كلها، وبيت المقدس في السنة نفسها، قد دفع الطرطوشي الى ترك الشام، فاتجه نحو مصر، واول مدينة نزل فيها هي مدينة (رشيد) ولما غادرها اتجه نحو مدينة الاسكندرية التي وصلها حوالي سنة ٤٨٠هـ وهو في الثلاثين من عمره[١٧] .

الطرطوشي في الاسكندرية

وكانت مصر والاسكندرية بوجه خاص عند وصول الطرطوشي اليها وشيكة الخروج من أزمة خطيرة، فقد كانت السلطة الفعلية كلها في الدولة في يد الوزير الافضل شاهنشاه بن بدر الجمالي الذي شق صفوف الفاطميين عند توليته لأحمد المستعلي بدلاً من نزار ابن الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الذي كان قد توفي سنة ٤٨٧هـ [١٨]، ويصف ابن فرحون الاوضاع العلمية التي كانت سائدة في ظل هذا المشهد ، فيقول : ((وكان نزوله بالاسكندرية .. فوجد البلد عاطل عن العلم ،أقام بها فبثَّ علماً))[١٩]، استقر الطرطوشي في الاسكندرية ، ومعه الشيخ الصالح عبدالله السايح الذي لازمه ولا يريد مفارقته ابداً، وبدأ يدرس وينشر العلم على مذهبه فأقبل طلاب العلم عليه وعلى حلقات دروسه، وفي هذه المدة تزوج من سيدة تقيه غنية . كما ذكرنا سابقاً . تنتمي الى بيت من اكبر بيوتات الاسكندرية، فأطلقت يد الطرطوشي في اموالها، وتحسنت احواله، ووهبت له داراً

---

[١٧] . الشيال، الاعلام ، صـ ٦٩.

[١٨] . الديباج المذهب ، جـ٢ ، صـ ١٩٤.

[١٩] . نفسه، جـ٢ ، صـ ١٩٤.

من املاكها فسكن معها في الدور العلوي، واتخذ من الدور الاسفل مدرسة لألقاء دروسه على طلبة العلم خاصة القادمين الى الاسكندرية[٢٠] .

٢. مواعظه للسلطة الحاكمة وقول الحق

تشير المصادر الى انه خرج لزيارة العاصمة القاهرة، وزار الملك الافضل شاهنشاه بعد ان سمع بجبروته وقوته وسلطانه، فنصحه نصيحة العلماء المخلصين، وطلب منه الرفق بالرعية واشاعة العدل بينهم، وكان في مواعظه إياه جريئاً قويا لا يخشى لومة لائم في قول الحق ، وقد وصفه المقري بأنه كان قوالاً للحق[٢١]، الا انه بعد عودته الى الاسكندرية ، وتكاثر طلبة العلم على دروسه، واقبال الناس عليه، قد اوعز عليه صدر قاضي الاسكندرية ابن حديد الذي ضاق به ضيقاً شديداً[٢٢]، لا سيما ان الطرطوشي ، قد اطلق عدة فتاوى يعارض بها النظام الحاكم، فاستغل ابن حديد ذلك ورفعها الى الوزير الافضل، فما كان من هذا الا ان حدد اقامته في الفسطاط، وتحديداً في مسجد الرصد جنوبي الفسطاط ، ومنع الناس من الاتصال به والأخذ عنه، ومكث الطرطوشي على هذا الحال مدة طويلة من الزمن ولم يتحرر من ذلك الا بعد مقتل الافضل، ومجيء الوزير الذي خلفه وهو المأمون البطائحي الذي افرج عنه وبالغ في إكرامه[٢٣]، وبهذا، عاد الى الاسكندرية، واستأنف حياته ونشاطه العلمي، وفي هذه المدة ألف كتابه هذا (سراج الملوك) واهداه الى الوزير البطائحي ليكون له سراجاً فيحكمه وسياسته[٢٤].

---

[٢٠] . الشيال، الاعلام، صـ ٧١ .

[٢١] . المقري ، نفح الطِيب ، جـ٢، صـ ٨٧.

[٢٢] . الشيال، الاعلام، صـ ٧٣.

[٢٣] . نفسه ، صـ ٧٧ .

[٢٤] . سراج الملوك، ص ٣٥- ٣٦؛ ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف ،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهره، تح: محمد حسين ، بيروت، الكتب العلمية ، ط١، ١٩٩٢،جـ٥، صـ ٢٢٥.

٣. شيوخه وتلاميذه

شيوخه: تلقى الطرطوشي علومه على عدد من الشيوخ المهمين، ومن ابرز هؤلاء :

- ابو الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ) القاضي الاندلسي المعروف كان شيخ الاندلس وعالمها في ذلك الزمن دون منازع، ودرس على يديه في سرقسطة وأخذ عنه مسائل الخلاف وسمع منه وأجازه[٢٥]. وينقل الضبي عن الطرطوشي انه قال : ((لم أرحل من الاندلس حتى تفقهتُ ولزمت الباجي مُدةً))[٢٦].
- ابن حزم الاندلسي (ت٤٥٦هـ) وقد قرأ الطرطوشي عليه الأدب بمدينة اشبيلية[٢٧]، ذكر ذلك ابن خلكان[٢٨]، ولكنه لم يكن دقيقاً في ذلك، لأن ابن حزم توفي في السنة اعلاه، ولم يكن الطرطوشي في هذه السنة قد تجاوز من العمر الخمس او الست سنوات ،فولادته . كما ذكرنا سابقاً . كانت سنة (٤٥٠هـ) او (٤٥١هـ)، وبالتالي فلا يعقل ان يرتحل الطرطوشي في هذه السن الصغيرة الى اشبيلية، ويتتلمذ فيها على ابن حزم ويأخذ عنه الأدب، وربما يكون قد قرأ كتبه في الأدب بعد ذلك وحينما اصبح شاباً او قرأ الأدب على واحد من تلامذة ابن حزم، فاختلط ذلك على ابن خلكان.

---

(٢٥) . ابن بشكوال، ائمة الاندلس، جـ٣، صـ ٣٣٨.

(٢٦) . رجال الاندلس ، صـ ١٢٨.

(٢٧) . ابن خلكان، انباء الزمان، جـ٤، صـ ٢٦٢.

(٢٨) . نفسه، جـ ٤،صـ٢٦٢.

- ابو بكر محمد بن احمد الشاي (٥٠٧هـ) المعروف بالمستظهري، كان فقيهاً ومحدثاً، وقد أخذ عنه الطرطوشي اثناء إقامته ببغداد[٢٩].
- ابو محمد رزق الله بن عبدالوهاب التميمي (ت٤٨٨هـ /١٠٩٥م) ، كان فقيهاً واعظاً من أهل بغداد، وقد اخذ الطرطوشي منه علم الفقه لا سيما الحنبلي منه[٣٠]، وغيرهم .

تلاميذه : تتلمذ على يد الطرطوشي ، عدد كبير من فقهاء ثغر الاسكندرية وطلابها، وتخرج علي يده الكثيرون، ونبغ من هؤلاء التلاميذ، عدد مهم اصبحوا فيما بعد من اعمدة الحركة العلمية في مصر، ومن ابرز هؤلاء:

- سند بن عنان بن ابراهيم الازدي (ت٥٤١هـ)، كان من انبغ تلاميذ الطرطوشي واقربهم إليه، وقد سمع منه، ولازم حلقته سنين طويلة[٣١] .
- ابو الطاهر بن عوف، اسماعيل بن مكي بن اسماعيل الزهري (ت٥٨١هـ) كان قد اصبح شيخ المالكية في مدينة الاسكندرية طوال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي دون منازع[٣٢].
- ابو بكر العربي، وهو محمد بن عبدالله بن محمد العربي المعافري الاشبيلي (ت٥٤٣هـ)، الفقيه المعروف قاضي اشبيلية، وقد لازم الطرطوشي في بيت المقدس قبل انتقاله الى الاسكندرية واستقراره بها، وتتلمذ عليه، كما

---

[٢٩] . ابن بشكوال، ائمة الاندلس ، ج٢،ص٤٤٩؛ ابن العماد، ابو الفلاح عبد الحي الخيلي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب،بيروت ، المسيرة ، ط٢، ١٩٧٩، جـ٢، صـ ٦٢.

[٣٠] . سراج الملوك، ص ١٦

[٣١] . نفسه، صـ٢٨؛سالم السيد عبد العزيز، تأريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي، القاهرة، دار المعارف، طبعة ١ ١٩٦٩ ،صـ٢٢٩. ٢٣٠.

[٣٢] . سراج الملوك، صـ٢٩، ينظر مقدمة المحقق.

لازمه في الاسكندرية مدة من الزمن، فاستزاد من علمه وتوثقت علاقته باستاذه الطرطوشي[٣٣].

- المهدي بن تومرت، وهو ابو عبدالله بن محمد بن عبدالله المصمودي لقب بالمهدي وهو من اسس دولة الموحدين ،توفي سنة (٥٢٤هـ)، كان اثناء رحلاته في طلب العلم، قد قصد الاسكندرية واتصل بالطرطوشي وتتلمذ عليه[٣٤] .

٥- مكانته العلمية

أ – اقوال العلماء فيه: لاشك ان ابا بكر الطرطوشي، كان من الائمة الكبار، يدل على ذلك سيرته ونشأته العلمية، ونشاطه العلمي الوافر، والعدد الواسع من التلاميذ، كما يدل على ذلك، آراء واقوال العلماء فيه، فقد وصفه ابن بشكوال بأنه كان إماماً عالماً،عاملاً ، زاهداً متواضعاً[٣٥] . كما وصفه الضبي بأنه : امام وفقيه وحافظ ومحدث ثقة زاهد وعالم و فاضل [٣٦]، واشاد بمكانته العلمية حيث ذكر عنه انه كان اوحد زمنه علماً وزهداً ، لم يتمسك في الدنيا بشيء الى ان توفي[٣٧] ، ويصفه ابن خلكان بالفقيه المالكي الزاهد، ثم يردد نفس الصفات التي ذكرها ابن بشكوال في ترجمته للطرطوشي، ومن الواضح انه نقلها عنه حرفياً))[٣٨] ، وفي وفاته سنة (٥٢٠هـ)، ذكر ابن تغري بردي انه توفي فيها ابو بكر

(٣٣) . نفسه، ص٢٩– ٣٠؛ينظر مقدمة المحقق: ابن بشكول ، ائمة الاندلس، جـ٣، صـ٣٣٨.

(٣٤) . سراج الملوك ،صـ ٣٠.

(٣٥) . ائمة الاندلس ، جـ٣، صـ ٣٣٨.

(٣٦) . رجال الاندلس، صـ١٢٨.

(٣٧) . نفسه، ص ١٣١.

(٣٨) . انباء الزمان، جـ٤،صـ ٢٦٢.

الطرطوشي : ((الامام الفقيه الصوفي المالكي .. الاندلسي العالم المشهور، نزيل الاسكندرية))[٣٩].

أشاد الذهبي في سيره الطرطوشي، فقد وصفه بالامام العلامة، الفقيه، عالم الاسكندرية[٤٠]. اما ابن العماد الحنبلي ، فقد وصفه بانه كان احد الائمة الكبار[٤١].

ب . مؤلفاته : للطرطوشي مؤلفات كثيرة، اغلب الظن انه وضع معظمها اثناء مقامه في الاسكندرية، ويبدو واضحاً من قائمة المؤلفات التي ذكرتها المصادر، انه كان نشيطاً في الانتاج التأليفي، ومن أهم مؤلفاته هي :

- مختصر تفسير الثعالبي[٤٢].
- الكتاب الكبير في مسائل الخلاف[٤٣].
- كتاب الاسرار، ذكره الطرطوشي في اكثر من موضع من كتاب (سراج الملوك)[٤٤].
- رسالة في تحريم جبن الروم، وكانت هذه الرسالة من الاسباب التي أثارت عليه القاضي ابن حديد والوزير الافضل[٤٥] .
- التعليقة في الخلافات[٤٦].

---

(٣٩) . النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٢٢٥.

(٤٠) . الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ، سير اعلام النبلاء، تح : عمر بن عرامة العمروي، بيروت، دار– الفكر، (١٩٩٧م)،جـ١٤، صـ ٤١٧.

(٤١) . شذرات الذهب، جـ ٤، صـ ٦٢.

(٤٢) . سراج الملوك، صـ٣١، ينظر مقدمة المحقق : الشيال، الاعلام، صـ ٨١.

(٤٣) . ابن خلكان، انباء الزمان ،جـ٤، صـ ٢٦٣.

(٤٤) . الطرطوشي، ص ص .٢٧٢ – ٧١٩.

(٤٥) . نفسه، ص٣٣، الشيال، اعلام الاسكندرية، صـ ٨٦.

(٤٦) . الضبي، رجال الاندلس، صـ ١٣١.

- له كتاب يعارض كتاب الاحياء للغزالي[٤٧].
- رسالة ابي بكر الطرطوشي الى ابن تاشفين[٤٨].
- سراج الملوك[٤٩]، وهو اهم كتب الطرطوشي، موضوع بحثنا هذا.
- كتاب الفتن[٥٠].

١٠. كتاب بر الوالدين[٥١]، وغيرها كثير.

المبحث الثاني: الآداب السلطانية في كتاب (سراج الملوك)

ا. **مفهوم الآداب السلطانية** : تعني عبارة (الآداب السلطانية)، تلك الكتابات السياسية التي تزامن ظهورها الاول مع حدث (انقلاب الخلافة الى ملك) في اللحظات الاولى من خلافة الدولة الأموية، وكانت في جزء واسع منها منقولة ومقتبسة من التراث السياسي الفارسي الذي أُستعين به في تدبير وسياسة أمور الدولة الاسلامية الوليدة[٥٢] ، وتتميز هذه الكتابات ، بجملة من المميزات الاساسية ، اهمها :

١. انها تقوم في اساسها على مبدأ نصيحة اولى الامر في تسيير شؤون سلطتهم[٥٣]، ووعظ الملوك والحكام وبيان ما ينبغي ان يأخذوا به انفسهم من العدل واعتماد السياسة الرشيدة الجامعة لمصالح الرعية التي لا تستقيم حياتها بدونها[٥٤].

---

(٤٧) . نفسه، صـ ١٣١.

(٤٨) . سراج الملوك، صـ٣٥.

(٤٩) . الضبي، رجال الاندلس، صـ١٣١

(٥٠) . ابن خلكان، انباء الزمان، جـ٤، صـ ٢٦٣.

(٥١) . نفسه، جـ٤، صـ ٢٦٣.

(٥٢) . العلام، عز الدين، الآداب السلطانية –دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي، مجلة عالم المعرفة، الكويت ، العدد ٣٢٤ ٢٠٠٦ ، صـ ٨.

(٥٣) . نفسه، صـ ٩ .

(٥٤) . الطرطوشي، سراج الملوك، صـ ٦.

وعلى ذلك، فان هذه الكتابات تتضمن مجموعة هائلة من النصائح الاخلاقية والقواعد السلوكية التي يجب على الحاكم اتباعها[٥٥].

٢. تعتمد هذه الكتابات، منهجية خاصة هدفها انتاج فكر سياسي، لا يقوم على التنظير بقدر ما يقوم على التجربة، وبالتالي فهي ثقافة سياسية تسعى الى تطبيقها على أرض الواقع[٥٦].

٣. تبنت في صياغة تصوراتها السياسية الاخلاقية، ثلاث مرجعيات كبرى هي : التجربة العربية الاسلامية، والسياسة الفارسية الساسانية، وانظمة الحكم اليونانية الهلنستية، وعملت على تذويب اي تقاطع او تناقص محتمل بين هذه المرجعيات[٥٧].

٤. ان الكتابات الخاصة بالآداب السلطانية، هي بمثابة الدستور للدول او الحكام، بالمفهوم المعاصر لهذه المفردة، ولكنها تقتصر في الغالب على الدستور السياسي فقط، او هي بمثابة (دليل عمل) سياسي اخلاقي ليكون طريقا للحاكم او السلطان في سياسته تدبير امور الدولة، ولذلك يقوم مؤلفوا هذه الآداب باهدائها الى الحاكم او السلطان، فلما رأى الطرطوشي مثلاً سياسة الوزير ابي عبدالله المأمون البطائحي وما بسطه من عدل، رغب ان يخصه بكتابه (سراج الملوك)[٥٨].

II. المصنفات التي سبقت الطرطوشي في الآداب السلطانية

لقد عالج موضوع (الآداب السلطانية) اكثر من مفكر اسلامي سبق الطرطوشي في ذلك، ومنها : كتاب (عيون الاخبار) لأبن قتيبة الدينوري،

---

(٥٥) . العلام، الآداب السلطانية، صـ ٩ .

(٥٦) . نفسه، صـ ٩ .

(٥٧) . نفسه، صـ٩.

(٥٨) . الطرطوشي، صـ١١، تنظر مقدمة المحقق

وكتاب (الاحكام السلطانية والولايات الدينية) و(نصيحة الملوك) لأبي الحسن الماوردي، وكتاب (التيسر المسبوك في نصيحة الملوك) لأبي حامد الغزالي[٥٩]، واعتقد ان الطرطوشي تأثر بهذا الكتاب كثيراً عندما كتب سراج الملوك ، ذلك ان منهج الكتابين في الاطار العام، هو منهج واحد يقوم على مزج تفكيرهما الاخلاقي بتفكيرهما السياسي مزجاً تاماً، ومن الكتب الاخرى التي اهتمت بالآداب السلطانية كتاب (المنهج المسبوك في سياسة الملوك) للشيرازي، وكتاب (الفخري في الآداب السلطانية) أبن طباطبا[٦٠]، ويعد (ابن المقفع) في عموم كتبه لا سيما ككيلة ودمنة الأب الروحي المؤسس لهذه الآداب[٦١] .

III. وصف عام للكتاب

يعد كتاب الطرطوشي (سراج الملوك) من أهم كتبه واقيمها، وهو واحد من كتبه القليلة التي عثر عليها، فان اغلب كتبه فقدت للأسف، وقد ذكرنا من قبل ان الطرطوشي ألف هذا الكتاب في الاسكندرية، وذلك بعد مدة قليلة من اطلاق سراحه من المعتقل الذي حددت إقامته فيه في الفسطاط، وقد أهداه الى الوزير المأمون البطائحي الذي أطلق سراحه وأكرمه، والطرطوشي في هذا الكتاب يقف الى جانب رواد الفكر الاسلامي الاوائل الذين حاولوا التأليف في علم السياسية وفن الحكم[٦٢]، وكان طغيان (الافضل الجمالي وزير المستنصر بالله الفاطمي) ، باعثاً قوياً، على تأليف كتاب في وعظ الملوك والحكام وما ينبغي ان يأخذوا به من

---

(٥٩) . سراج الملوك، صـ٣٦، تنظر مقدمة المحقق .

(٦٠) . نفسه، صـ ٣٦.

(٦١) . العلام، الآداب السلطانية، صـ١١.

(٦٢) . الشيال، الاعلام، صـ ٨٨.

العدل اثناء سياستهم للرعية، والقواعد السديدة في تدوين الدواوين، ومعاملة الجند، وفرض الارزاق او الرواتب، وسيرة الولاة والعمال، وجباية الأموال، وغيرها[٦٣] .

ذكر الطرطوشي اخباراً مختلفة عن سياسة حكام الاندلس الصائبة والمخطئة ، كما يصور بدقة تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم لصحابته وتربيتهم تربية قويمة، وفيه ما يوضح سياسة حكام العرب العظام في تدبير شؤون الحكم من امثال: ابي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وغيرهما[٦٤].

ويمكن القول، ان في كتاب سراج الملوك، جوهران اساسيان، هما : عرض سير الملوك والحكام الماضين وما احكموه من السياسات في قواعد الحكم التي دبروا بها شؤون الأمم السالفة، وعرض جوانب من الحكمة والسياسة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، مع كلمات جامعة للانبياء، والعلماء، والحكماء، والواعظين، مما ينبغي ان يتصف به الحكام وكذلك الناس في سلوكهم[٦٥].

وقد قسم الطرطوشي كتابه الى مقدمة، واربعة وستين باباً تشتمل على عدد من الفصول، جعل الباب الاول في وعظ الملوك، والثاني عن العلماء والصالحين ومقاماتهم عند السلاطين و الامراء ، كما عقد باباً في منافع السلطان ومضاره، وباباً في معرفة الخصال التي هي قواعد السلطان، وما الى ذلك من ابواب كثيرة تتصل بسياسة الحكم والملك وتدبير أمور الرعية، وخصص الباب الرابع والستين وهو الاخير لتناول وعرض بعض الحكم المنثورة[٦٦].

---

(٦٣) . سراج الملوك، صـ٦.

(٦٤) . الطرطوشي، صـ ٧- ٨.

(٦٥) . نفسه ، صـ٩.

(٦٦) . نفسه، صـ١٨- ٧٥٧ وما بعدها .

بقي ان نذكر بان الكتاب، طبع اكثر من مرة، ومنها الطبعة الاولى التي طبعتها الدار المصرية اللبنانية في القاهرة بتحقيق محمد فتحي ابو بكر وذلك سنة ١٩٩٤م، وهي النسخة التي اشتغلنا عليها في انجاز هذا العمل.

IV. الآداب السلطانية في سراج الملوك

مفهوم الآداب السلطانية عند الطرطوشي : لم يخرج الطرطوشي في مفهومه للآداب السلطانية في هذا الكتاب، عن مفهوم من سبقه من المفكرين الاسلاميين الذين لا يفرقون بين السياسة والاخلاق، فالطرطوشي يرى انهما شيئاً واحداً ممتزجاً، وهو في رأيه التقليدي هذا، يشبه آراء فلاسفة اليونان القدامى ومفكريهم[٦٧]. ومن هنا فانه لم يأت بشيء جديد او ملفت للنظر، ولهذا كان ابن خلدون محقاً تماماً في نقده اللاذع لفكره في كتابه حيث ذكر انه يدور حول كتابة الذي بوبة على ابواب لكنه لم يستوفي مسائله ولم يبين ادلته بل انه يعرض المسائلة ثم يغدق عليها بآثار واقوال وروايات، وينقل عن ما ذكره زعماء الخليقة ...الخ [٦٨]. وعلى ذلك فهو كتاب شبيه بالمواعظ لا اكثر، ومع احقية ابن خلدون في نقده لهذا الكتاب، الا انه من الانصاف الاشارة الى ان كتاب (سراج الملوك) كان حافلاً بالقصص والحكايات الممتعة، والاخبار والنوادر الطريفة، فضلاً عن تضمين الطرطوشي في كتابه، كثيراً من تجاربه وارائه القيمة، مما يدل على اطلاع واسع ومعرفة شاملة بمسائل الفقه والاحكام والتأريخ والآداب[٦٩].

V. منهج الطرطوشي في ايراد الآداب السلطانية وأهم نماذجها

---

(٦٧) . الشيال، الاعلام، صـ ٩٠.

(٦٨) . عبد الرحمن بن محمد ،.المقدمة ، تح: احمد الزعبي، الكويت ، الارقم ابي الارقم (د .ت)، صـ ٢٣٤وما بعدها .

(٦٩) . الشيال، الاعلام، صـ٩٠.

اعتمد الطرطوشي على طول كتابه، منهجاً في ايراده الآداب السلطانية، وذلك بأن يبدأ الباب بتقرير المبدأ الاخلاقي الذي يرى ان يتصف صاحب السلطان سواء أكان ملك او وزير او والي او قاضي، ثم يستشهد بكثير من الحكم والامثال التي تؤيد صحة ذلك، وقد يستشهد هذه الحكم والنوادر والقصص من المصحف الشريف او الأحاديث النبوية الشريفة، او من قصص الانبياء والصالحين والخلفاء والحكماء او من سير من السابقين من الملوك على اختلاف الاجناس والازمان[٧٠]، اما اهم نماذج هذه الآداب السلطانية ، فهي :

١. يرى الطرطوشي، ضرورة وعظ الملوك بأن الدنيا زائلة[٧١]، وان عليهم استحضار الموت القادم لا محالة، ويستشهد على ذلك بقوله تعالى: ((قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيل))[٧٢]، وقوله عز وجل: ((اعْلَمُوا أَنَّما الْحَيَاة الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْو وَزِينَة))[٧٣]، يخاطب الطرطوشي الانسان العاقل وينصحه بأن لايبيع الحياة الدنيا الزائلة التي هي بمنزلة اللهو والعب المؤقت ،بالحياة الابدية التي لاتنفني في الآخرة [٧٤]، ويستشهد بأحاديث شريفة على ذلك منها ما قاله عبدالله بن عمر بن الخطاب (ض) :((اخذ رسول الله (ص) ببعض جسدي فقال : يا عبدالله كن في الدنيا كأنك غريب او كعابر سبيل واعدد نفسك من الموتى[٧٥]، نقل الطرطوشي رواية تفيد بان احد الملوكً اصدر امرا بتقديم العون لكل شخص اصابه الضرر واصلاح حاله ومنحه درهمان ، فقدم اليه رجل وقال للملك ان قصرك عيبان،

---

(٧٠) . سراج الملوك، صـ١٧وما بعدها.

(٧١) . نفسه، صـ١٦.

(٧٢) . سورة النساء ، الاية ٧٧ .

(٧٣) . سورة الحديد، من الآية ٢٠.

(٧٤) . سراج الملوك،صـ١٨.

(٧٥) . نفسه، صـ٢٢.

الاول ان الملك يموت والثاني القصر يخرب ، فأجابه الملك (صدقت) فاقبل الملك على نفسه وانصرف عن الدنيا [٧٦].

٢. أهمية وجود العلماء والصالحين عند الامراء والسلاطين لغرض استشارتهم وينقل الطرطوشي رواية عن سفيان الثوري (ت١٦١هـ) يستشهد بها على رأيه البركة ترفع ويقل الرزق ، ذكر انه شهد في الاسكندرية خليجا كان الصيد فيه مطلقا لجميع الناس ، حيث كان فيه السمك وفيرو كأنه يغلي في الماء بحيث ان الاطفال يصيدوه بالقماش، ولما منع الوالي الاهالي من الصيد فيه، غادر السمك ولم يرى في الخليج الا واحدة حتى ذلك الوقت[٧٧].

ويشير الطرطوشي الى اهمية عداله السلطان التي تبشر البلاد بالرخاء والسخاء واللين والرحمة بعكس السلطان الجائر حيث ذكر ان السلطان المتصف بالعدالة ليس فوق منزلته الا نبي او ملك. ذلك ان السلطان العادل يعم صلاحه وخيره على البلاد والعباد، اما السلطان الشرير، فليس دون رتبته رتبة لشرير، لأن شره يعم كما يعم الخير الاول[٧٨]. ويروي عن سفيان الثوري قوله لأبي جعفر المنصور: ((اني لأعلم رجلاً إن صلح صلحت الأمة، قال: ومن هو؟ قال: أنت))[٧٩].

٥. ضرورة وجود السلطان في الارض وقيام الحكومات بالاشراف على شؤون الرعية والزام كل فرد حقوقه والانتصاف للمظلوم من الظالم، فمثل الرعية من دون

---

[٧٦] . سراج الملوك،صـ٨٩.

[٧٧] نفسه، صـ ١٩١.

[٧٨] . نفسه، صـ ١٨٦.

[٧٩] . نفسه ،صـ ١٨٩.

سلطان مثل الحيتان في البحر، لا ينتظم لهم امر حيث يزدرد الكبير على الصغير[٨٠].

٦. يعدُّ الطرطوشي منزلة السلطان بالنسبة لرعاياه بمثابة منزلة الروح من الجسد، فاذا صفت هذه الروح من الكدر، انتشر هذا الصفاء الى الجوارح وسرى في جميع الجسد، وإن تكدرت او فسد مزاجها فياويح الجسد[٨١]. ويشبه ذلك بماء العين التي تروي الاشجار، فان كانت العين فاسدة او مالحة ، ستشربها الاشجار ويسري فيها فيصيبها الكدر[٨٢].

٧. يُحدد الطرطوشي، اساس الملك بثلاثة خصال وهي : اللين، وترك الفضاضة، والمشاورة، ثم يقول : ((وقل من يعمل بها من الملوك))[٨٣]. ويستشهد على هذه الخصال بقوله تعالى: ((فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ))[٨٤].

٨. يرى الطرطوشي ان اول واهم الخصال التي تمثل قواعد السلطان ولا ثبات له بدونها، هو العدل، فالعدل قوام الملك ودوام الدول وأسُّ كل مملكة[٨٥]. ويستشهد على ذلك بقول الله تعالى : ((إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى))[٨٦]. ويقدم وصفاً شائقاً للوالي حيث يصف الملك بمثابة الرجل، فرأسة يمثل الملك نفسه اما القلب فيتمثل بالوزير ، بينما الاعوان هم ايدي الملك ، اما الارجل

---

(٨٠) . نفسه ، صفحة ١٨٩.

(٨١) . نفسه، صـ ٢٠٥.

(٨٢) . نفسه ، صـ ٢٠٦.

(٨٣) . سراج الملوك ، صـ ٢٠٨.

(٨٤) . سورة آل عمران ، الاية ١٥٩.

(٨٥) . سراج الملوك ، صـ ٢١٣.

(٨٦) سورة النحل ، لآية ٢٠

فيمثلون الرعية، وعدالة الملك هي الروح ولا عيش لجسد من دون روح، اما الوصول الى ذروة العدل لا بد من معرفة ان الرعية ثلاثة أنفس: الكبير، والوسط والصغير،فينبغي ان يتخذ الملك الكبير كأب له ويبر به، ويكرم اوسطهم ويعده كالأخ اما الصغير فيرحمة كالأبن بالنسبة له وبذلك يكون الملك قد واصل الى بر وكرم ،ورحمة الله تعالى[٨٧].

ويقسم الطرطوشي العدل الى قسمين: قسم الهي جاءت به الرسل والانبياء من الله تعالى ويستشهد عليه بحادثة انحياز النبي سليمان بن داود عليهما السلام الى خاصته عندما حكم بين الخصمين، فسلب الله منه ملكه، ثم يستشهد بقول الامام علي عليه السلام :امام موصوف بالعدالة خير من مطر غزير، وأسد يحطم كل شئ [٨٨]خير من سلطان ظالم، والسلطان الظالم خير من فتنة دائمة[٨٩]، ورأى الطرطوشي في العدل النبوي هذا، ان يجمع السلطان الى نفسه حملة العلم للمشورة[٩٠]، واما القسم الثاني من العدل، فهو السياسة الاصلاحية التي يقوم بها أمر الدنيا[٩١].

٩. يقرر الطرطوشي، ان طاعة الحكام فرض وواجبةعلى الرعية، وان اهم ما يعز به السلطان هي الطاعة التي لا تأتي الا عن طريق التودد الى الخاصة،

---

(٨٧) . الطرطوشي ، سراج الملوك ، صـ ٢١٤.

(٨٨) . أسد حطوم، يحطم كل شيء ، ينظر : ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، اعتناء وتصحيح: أمين محمد ، محمد صادق ،بيروت ، احياء التراث ، ط٣،(د.ت) ،جـ٣، صـ ٢٢٧.

(٨٩) . سراج الملوك، صـ ٢١٥.

(٩٠) . نفسه، صـ ٢١٦.

(٩١) . نفسه، صـ ٢٢١.

والعدل على العامة[٩٢]. ويرى بعدم اعتراض الرعية على ائمتهم في تدابيرهم، بل على الرعية الانقياد والسمع والطاعة، وعلى الائمة الاجتهاد [٩٣].

١٠. يذكر الطرطوشي خصالاً هي اركان السلطان والملك، واركان الملك ثلاثة : قاضٍ لا تأخذه في الله لومة لائم، وصاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، وصاحب خراج يستقضي ولا يظلم الرعية[٩٤].

١١. يعتقد الطرطوشي بحاجة السلطان الى العلم، وهو أحوج خلق الله الى معرفة العلوم وجمع الحكم، لكي يفصل في الخصومات بالعدل[٩٥]. ويستشهد في الباب الثاني والعشرين بوصية الامام علي عليه السلام الى كميل النخعي (ت٨٢) في الحاجة للعلم واهل العلم [٩٦].

١٢. يعمد الطرطوشي الى تعريف الوزارة والتي تعني شدّ وأزر قواعد المملكة، ويذكر جملة من صفات الوزير منها: ان يكون من اهل الخبرة والمعرفة، وان يكون مصاحباً للعلماء والصالحين، وامراً بالمعروف وناهي عن المنكر، وان يكون مخلصاً صادقاً يعمل على تذكير السلطان ان نسي، وان تذكر اعانهُ، وان يكون عفيفاً وصاحب سر[٩٧]. اما شروطه فهي ان يكون رحيماً بالرعية رؤوفاً بهم، وان يكون جيبه نظيف، وحافظا للغيب ، لا يرضى الامر الحقير الصغير ويكون نصوحا ، و معتدلاً في سياسته وقراراته[٩٨].

---

(٩٢) . سرج الملوك ، صـ ٢٤٣.

(٩٣) . نفسه ، صـ٢٤٣.

(٩٤) . نفسه، صـ ٢٦٠.

(٩٥) . نفسه، صـ ٢٦٢.

(٩٦) . نفسه ، صـ٢٦٩- ٢٧١؛ نهج البلاغة ، جمع وتنسيق : الشريف الرضي، تح: محمد عبده، بيروت، المعارف، ط١ ،١٩٩٠، صـ ٧١٢- ٧١٤.

(٩٧) . سراج الملوك، صـ ٢٨٩.

(٩٨) . نفسه ،صـ ٢٩٠.

١٣. ويرى الطرطوشي ان من اهم الخصال التي تدخل في جمال السلطان، هي العفو[٩٩]. ويستشهد بقوله تعالى : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[١٠٠]، فالعفو محبة من الله واحسان[١٠١]. كما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الى ان تعم الرحمة في جميع انحاء الارض لتنزل رحمة الله عز وجل من السماء [١٠٢].

١٤. يرى الطرطوشي ان من صفات السلاطين والولاة هي : الكرم والجود والسخاء والايثار، وهي من الصفات التي تركز المملكة وتجعلها اكثر جمالاً عند الرعية[١٠٣].

١٥. ويزعم الطرطوشي في آدابه، انه اذا جار السلطان عند الرعية وظلمهم، فما عليهم الا الصبر، وترك السلطان يتحمل الوزر وحده[١٠٤]، ويستشهد على ذلك بعدة احاديث نبوية شريفة منها : قال النبي صلى الله عليه وسلم ﴿إنكم سترون بعدي أثره وأموراً تنكرونها، قالوا فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال : أدوا لهم حقوقهم، واسألوا الله حقكم﴾[١٠٥].

١٦. يعتقد الطرطوشي، ان هناك خصالاً تؤدي الى اصلاح الرعية وهي: تمسكم بأديانهم، وحفظهم لمروآتهم، اما من جانب السلطان واصلاحه، فهي: تنزهه

---

(٩٩) . نفسه، صـ٣٠٥.

(١٠٠) . سورة الاعراف، من الاية : ٩٩.

(١٠١) . سراج الملوك ، صـ٣٠٧.

(١٠٢) . الطرطوشي ، سراج الملوك ، صـ ٣٠٩.

(١٠٣) . نفسه، صـ ٣٩٤- ٣٩٥.

(١٠٤) . نفسه ، صـ٤٦٢.

(١٠٥) . نفسه، صـ٤٦٣.

عن الاخلاق السيئة، وبعده عن مواطن الشبهات والريب، وترفعه عن صحبة اهل البطالة والمجون واللعب واللهو، وعن الاعلان بالفسوق[١٠٦].

١٧. يحذر الطرطوشي في آدابه، من مصاحبة السلاطين، ويبين بأن جميع الحكماء سواء كانوا عربا او عجم اوصوا على النهي من مصاحبة السلطان لما فيها من مخاطر هي اكبر من مخاطر ركوب البحر[١٠٧].

١٨. وعن ما يجب أن يعمله السلطان مع الجند، يرى الطرطوشي الذي يفصل أولاً في فائدة وجود الجند واهميتهم في حراسة الدولة وحمايتها، ان يقوم السلطان بتفقد احوال جنده، فيدر عليهم بالارزاق، ويسدُّ حاجاتهم، ويعمل على مكافأتهم على قدر ما بذلوه من جهد وعناء، ذكر ان ابا جعفر المنصور، في يوم ما أنقذ جيشه، وقال لأحد قادته: ان يُسَير الجيش، ثم قال حسب قول الاعرابي، جوع كلبك يتبعك[١٠٨].

١٩. ويرى الطرطوشي ، ان سياسة السلطان في جباية الخراج، يجب ان تقوم على ضرورة أن يأمر الجباة بالرفق مع الناس، والابتعاد عن الحماقات، لأن الجباة احياناً يمصون دماء الناس من دون سماع صوت[١٠٩].

٢٠. يطالب الطرطوشي، السلطان باتباع سيرة الرسول الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم في التعامل مع بيت المال، فالنبي والرسل والخلفاء من بعدهم كانوا يبذلون المال للناس ولا يدخرونها[١١٠].

---

(١٠٦) . نفسه، صـ٤٧٠.

(١٠٧) . نفسه، صـ٤٨٠.

(١٠٨) . نفسه ، صـ٤٦٣.

(١٠٩) . سراج الملوك، ٤٩٦.

(١١٠) . نفسه ، صـ٥٠٠.

٢١. يذكر الطرطوشي، الصفات المعتبرة التي يجب توافرها في الولاة وهي: أن لا يكون الوالي امرأة، وان يتخذ له رجالاً يجعلهم على طبقات، فمنهم للشورى ومنهم للأعداد الحروب ، و لمباشرتها، وبعضهم لجباية الاموال، وبعضهم للكتابة وغيرها، ولا يشترط في الوالي النسب القريشي فهذا الشرط لا يكون الا في الامامة العظمى دون سائر الولايات(١١١). ومن صفات الوالي الاخرى، الشدة بلا عنف، وعدم طلب العدل بالجور، وطلب الاموال من مستحقيها من غير تبذير ولا سرف، ورزانة العقل، وتراكم الخبرة ، و العلم باحكام الشريعة، وبُعد الهمة والعزيمة والشجاعة بحيث لا يخاف في الله لومة لائم(١١٢).أما العمال، فيجب ان يليها اهل الحزم والكفاية، والصدق والامانة، وان لا يكون العامل طالباً للولاية ولا راغب فيها(١١٣).

٢٢. يعتقد الطرطوشي ان أي حاكم او سلطان لا يحكم بكتاب الله و سنة رسوله، فهو إما كافر او ظالم او فاسق(١١٤) استناداً الى قوله تعالى : ((وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ))(١١٥)، وقوله تعالى ((وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ))(١١٦)، وقوله تعالى ((وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ))(١١٧).

(١١١) . نفسة،صـ٥٥٣.
(١١٢) . نفسه، صـ٥٥٣،٥٥٤،٥٥٥،٥٥٧ .
(١١٣) . نفسه، صـ٥٦١.
(١١٤) . نفسه، صـ ٥٩١.
(١١٥) . سورة المائدة، الاية : ٤٤.
(١١٦) . سورة المائدة، الاية :٤٥.
(١١٧) . سورة المائدة، الاية : ٤٧.

٢٣. يضع الطرطوشي في كتابه، ما يجب ان يعتمده الملك والحاكم عموماً من سياسات في تدبير الحروب، وأول ذلك : تهيئة العدد و العُدة والاسلحة والخطط وغيرها ، فالله تعالى يقول : ((وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم))[١١٨]. كما تشمل تقديم العمل الصالح قبل لقاء العدو، من صدقة وصيام، ورد مظلمة، وصلة رحم، ودعاء مخلص، وأمر بمعروف وتغيير منكر، وامثال ذلك[١١٩]. كما تشمل بث الجواسيس في عسكر العدو، وممارسة الخدعة والحيلة والمكيدة، ومن اعظم المكائد في الحرب الكمناء، وتشمل أيضاً اختيار الرجال المعروفين بالشجاعة[١٢٠]وغيرها .

الخاتمة

توصل البحث الى عدد من النتائج منها :

١. الطرطوشي في هذا الكتاب يعد من رواد الفكر الاسلامي الاوائل الذين ساهموا بالتأليف في علم السياسة وفن الحكم.

٢. ثمة فرق بين الآداب السلطانية، والاحكام السلطانية، فالاولى تحاول مزج السياسة بالجانب الاخلاقي، اما الثانية فتركز على الجانب الشرعي.

---

(١١٨) . سورة الانفال، الاية : ٦٠.

(١١٩) . الطرطوشي ، سراج الملوك، ص٦٧٨.

(١٢٠) . نفسه، ص ٦٨٢،٦٨٣،٦٨٤،٦٨٦،٦٨٩ .

٣. يرى الطرطوشي ان الاخلاق والسياسة، هما شيء واحد متفق، وهو في هذا المفهوم يشبه غيره من المفكرين الاسلاميين، كما يشبه في طرحه هذا طروحات فلاسفة اليونان القدامى ومفكريهم.

٤. الآداب السلطانية في مفهوم الطرطوشي غلب علها، الطابع الديني الوعظي، ولذلك لم يقدم لنا استيفاء كاملاً للموضوع.

٥. كان اسلوب الطرطوشي في الكتاب، سهلاً ممتعاً فيه بعض المحسنات البديعية، وربما يعود ذلك الى كونه شاعراً.

٦. اعتمد بدرجة اساسية في آدابه السلطانية في الكتاب، على النصيحة الموجهة الى اولياء الامور بمختلف مناصبهم ووظائفهم.والسياسة التي يجب ان تتبع وان اي سلطان لايلتزم او لا يحكم بما جاء بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فهو كافر اوظالم اوفاسق.

٧- جاء هذا الكتاب باسس وقواعد تعمل على تقييد السلطة لتسلك توجهاً دستوريا ، وكلما كان هناك تباعد بين الدولة ورعيتها في الالتزام بمقتضاه تكون النتيجة الضعف والانحلال والسقوط